

تاريخ القبول: 2021/11/04

تاريخ الإرسال: 2021/10/15

تاريخ النشر: 2022/03/17

الخطاب النقدي الجامعي الجزائري وإشكاليات البحث عن المنهج The critical Algerian university discourse and the problematics of research the method

بولعسل السعيد

جامعة الإخوة منتوري قسنطينة (الجزائر)، boulasselsaid@univ-ijjel.dz

الملخص:

تعالج هذه المقالة العلمية المسألة المنهجية في الخطاب النقدي الجامعي الجزائري، لاسيما ما تعلق بمسارات البحث عن المنهج، ومحاولات إيجاد البدائل المنهجية؛ إما بالانفتاح على الآخر الغربي واستلهاهم منهجياته بوصفها مناهج عالمية أحدثت نقلة نوعية في قراءة النصوص الأدبية، وأسست لقراءة فاعلة تحقق للنصوص استمرارياتها كما هو الحال عند الناقد عبد الحميد بورايو ومحمد ساري وعلي ملاحي وغيرهم من النقاد الجزائريين، أو إيجاد بدائل وفق رؤى اجتهادية تراعي خصوصيات النص العربي ومرجعياته وطبيعة النص نفسه في تعدد مستوياته كما هو الحال عند عبد الملك مرتاض في الدعوة إلى التركيب بين المناهج، وتبني منهجية اللامنهج. أو الدعوة ضمن الأطر النظرية إلى حل مسألة المنهج والخروج من التيه المنهجي الذي لا يكون إلا ضمن الأنا الحضارية وخصوصية المرجعيات العربية للنصوص.

الكلمات المفتاحية: المنهج، الخطاب، النقد الجامعي الجزائري، التركيب المنهجي.

Abstract :

This scientific article deals with the question of method in Algerian university critical discourse, in particular with

regard to the avenues of research for a reliable method of criticism, either by opening up to the Western Other and drawing inspiration from his methods. as global approaches that have allowed a qualitative leap in the reading of literary texts, , or to find alternatives according to visions that take into account the peculiarities of the Arabic texts and their multiplicity of levels, such as the case of critic AbdulMalik Mourta in these applications to the combination between different methods, and the adoption of the methodological vision which does not conform to any methods. Or rather in a theoretical framework to resolve the question of the method, and to get out of methodological wandering, taking into account the civilizational self and the specificity of Arabic texts.

Keywords: method, discourse, Algerian academic critical, combination of methods.

بولعسل السعيد: boulasselsaid@univ-jijel.dz

1- مقدمة:

لا يمكن للعمل النقدي أن يتأسس معرفيا، ويثبت حضوره الفعال والمقنع لدى المتلقي إلا عبر أرضية منهجية تستمد وجودها انطلاقا من قواعد نظرية، ومبادئ علمية صلبة، ومفاهيم ومقولات دقيقة، ونظم تحليل وتفسير وتأويل تكون قائمة على سياقات إبستمولوجية معروفة لا تخفى مرجعيتها، ذلك لأن المنهج هو الخيط الناظم للفعل النقدي، وأحد أهم مكتسبات النظرية النقدية المعاصرة، لهذا فهو " ضرورة قصوى للعمل النقدي لا مناص من اعتماده والارتكاز على قاعدته النظرية المتينة، فهو ضابط جوهرى وقائد موجه للحراك الكتابي النقدي الأصيل ينقده من مغبة الإذعان للفاعلية الانطباعية المجردة التي تحركها العاطفة البسيطة الأولية إزاء النصوص المقروءة والظواهر المقاربة"¹، وكل افتقاد للمنهج هو افتقاد للدقة في

التقويم والمقاربة، ونوع من النأي بعيدا عن الاشتغال المنصف على الظاهرة الأدبية، بل يعد سيرا خاطئا في الجادة الخطأ صوب المعرفة.

ولقد كان أثر المنهج في العلوم الإنسانية عموما واضحا جليا في بناء التصور العام عن الظواهر التي محورها الإنسان وفهم كنهها، كما كان أثر المنهج كذلك وثمراته واقعا ملموسا في مقارنة الظواهر الأدبية والفنية وقد أثمرت في بساتين النقد الغربية، وأبانت عن نتائج تبعث عن الدهشة. لهذا كان الهاجس المنهجي وتحديثه، وقضية التعامل مع النصوص، بل قضية تجديد أدوات التحليل والقراءة بما يتماشى والتحول النوعي في الكتابة الأدبية من المسائل المركزية، إن لم تكن في مقدمة القضايا الكبرى التي لم تغب عن التفكير النقدي في كتابات الرعيل الأول من النقاد الجزائريين، مما يبين عن أهمية المنهج بأبعاده المتعددة، وعن ملامح الوعي العميق بمشكلات المنهج التي تشكلت في سياقات زمنية متعددة.

1- في مفهوم المنهج:

عادة ما يراد بكلمة (المنهج) في اللغة العربية معنى: "الطريق البين الواضح"²، وهو معنى بعيدا كل البعد عن المداليل المجازية للكلمة في الاصطلاحات المعاصرة، بل قد يتماهى المعنى اللغوي والمعاني الدينية والإيديولوجية بعضها مع البعض في الميراث الديني والفكري للشعوب ليعني للرسالة وطريق الهداية. غير أن المعنى ليتضح أكثر في المعاجم الأجنبية من جهة المصدر الاشتقاقي، فكلمة منهج (Méthode) الفرنسية أو (Method) الانجليزية أو (Metodo) الإسبانية والإيطالية برغم حداثة عهدها تعود للكلمة اللاتينية (Methodus) الموجودة في اللغة المحكية للعصر الوسيط و التي تعود بدورها للكلمة اليونانية (Methodos) والتي تعني في مجملها³:

- الوضوح و النظام، والقدرة، والأهلية، وتقصى والبحث، وخط سير، والمخطط... إلخ

- مجموعة الوسائل العقلانية و المنظمة التي نستعملها لاكتشاف أو البرهنة (Découvrir ou Démontrer) على حقيقة من أجل دراستها أو بغية تعليمها.

فكلمة منهج في اللغات الأجنبية ارتبطت كما هو ظاهر بعمليات البحث العقلاني، و التقصي المنظم في عالم الأفكار و عالم الأشياء، المؤدي إلى غاية وأهداف يراد بلوغها، والبرهنة على صحتها وصحة منطقاتها النظرية.

أما خارج هذه الدلالات المعجمية يشير مصطلح المنهج من وجهة النظر العلمية إلى الطريقة التي نصل من خلالها وبها إلى نتيجة معينة سواء عن طريق ترتيب الأفكار والأحكام والأدلة، فيصير الموضوع المدروس معروفا، أو عن طريق تطبيق برنامج مسبق لسلسلة من العمليات التي ينبغي إكمالها وتجنب أثناء ذلك لبعض الأخطاء لبلوغ نتيجة معينة⁴. وفي ميدان النقد الأدبي لا يعدو المنهج من أن يكون هو كذلك طريقة للتناول والتحليل الأدبي غايته مساعلة القيم الجمالية للعمل الأدبي، وإصدار الحكم عليها من منطلق معايير يستمدّها الناقد من تصور فكري، ورؤية نظرية سابقة مؤطرة لمساره؛ فهو "مجموعة متناسقة من الخطوات الإجرائية المناسبة لدراسة الموضوع، تعتمد على أسس نظرية ملائمة و غير متناقضة معها. أي أن التناسب والتناسق لابد أن يتم بين جوانب ثلاث: الأصول النظرية للمنهج، وأدواته الإجرائية و الموضوع المدروس"⁵.

2- النقد الجامعي الجزائري وخطاب المنهج :

إن البحث عن المنهج كما هو الشأن في حركة النقد الجزائري يعتبر حديثا جدا، حيث لا يكاد يتجاوز العقود الخمسة الأخيرة، إذ لم تخل الكتابات النقدية المنجزة للنقاد الجزائريين على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم، وتباين المنظومات

النقدية التي يصدر عنها، وتنوع المناهج التي يتبنونها، من دعوة أو تبين لطرق وأساليب وأدوات في فهم الظواهر الإبداعية، مما يبين عن الوعي النظري العميق بأبعاده الإشكالية وخطورتها في الآن نفسه، ومحاولة فهم المنهج والتحكم فيه وتطويعه. وبعد الناقد عبد الله الركيبي أحد أوائل الفاعلين النقديين في الخطاب النقدي الجامعي الجزائري، والذي كشفت كتاباته النقدية التي ساهمت في تأثيث المشهد النقدي الجامعي الجزائري عن وعي مبكر بالرؤية المنهجية في مقارنة النصوص والظواهر الأدبية من قصة ورواية وشعر، ففي دراسته الموسومة (في الشعر العربي الجزائري الحديث) التي تعود إلى مطلع ستينيات القرن الماضي (1961).

تتكشف الرؤية المنهجية التي اعتمدها، حيث يدعو إلى مراعاة جملة من الخطوات المساعدة لتقصي وفهم ظاهرة الأدب الجزائري ضمن المعطى التاريخي كخيار منهجي في قراءة الأدب، بغية استعادة النصوص الشعرية، والحكم عليها جماليا حكما يتسم بالمصادقية، ويكون أقرب إلى الواقع، لأنه -في تقديره- لا يمكن أن يدرس النص مجردا من سياقاته المختلفة، إنما يدرس مع ما يحيطه من المظاهر العامة التي تساهم في فهمه وتفسيره، حيث قول في ذلك: " لا بد لمن يتصدى لدراسة الأدب في الجزائر-والشعر منه بالخصوص- أن يتعرض للعوامل التي ساهمت في تطويعه، والأحداث التي مرت بالشعب الجزائري... وهذا بالطبع يدعو إلى أن نلقي نظرة مجملة على حياة الفكر، وسير الأدب، منذ الغزو الفرنسي حتى يومنا هذا.. لتكون دراستنا أقرب إلى الصدق، وألصق بالواقع"⁶، وهو إذ يتحدث عن ربط الأدب بالواقع إنما يشير إلى ضرورة الاستجابة نقديا إلى مقتضيات منهجية في التناول والتحليل باعتماد مجموعة من الخطوات تقرب من فهم النص وتفسر ملاباسته، وهي الدعوة التي رافقت هذا الناقد في جل ما كتب من نقود، والتي تبناه

الكثير من النقاد الجزائريين الذي ساروا على المنهج نفسه، أو تبناوا مناهج تنتمي للطبيعة المنهجية نفسها، كما هو الحال عند الناقد صالح خرفي، فضمن حدود الرؤية المنهجية عينها، دعا هذا الناقد إلى الاستعانة بالتاريخ في فهم النصوص، إذ اعتبر أن ربط الظاهرة الأدبية والفكرية بالملابسات التاريخية من ظروف، وأحداث، وبيئة يساعد على فهم النص، بل تمكن من الوقوف على جذوره في عمق التاريخ، ومعرفة بالتالي الأصل الذي انبثق عنه، وفي هذا الصدد يقول "إن دراسة الطبيعة وإلقاء الأضواء على البيئة، كمدخل لدراسة ظاهرة أدبية فكرية، لا يساعد على فهم النص بهدى من ملابساته فحسب، بل يساعد أيضا على تتبع الجذور العميقة للنبذة الأدبية، وطبيعة الأرض التي انشقت عنها، حتى لا نهتم بالفرع مبتورا عن أصله، أو نستند إلى أصل مجتث من أرضه"⁷.

وهذه دعوة صريحة من لدن الباحث إلى الإجراء المنهجي الذي يربط النص عند دراسته بالسياقات الخارجية التي أوجدته، أو أسهمت في تكوينه على الأقل. وهو التصور المنهجي نفسه الذي دعا إليه الناقد محمد ناصر، وتبناه في قراءته للشعر الجزائري الحديث (1925-1975)، وهو تصور يجمع العملية النقدية ضمن إطارين هما الشكل والمضمون اللذان يظلان متلازمين، " لأن دراسة الشعر من جانب المضمون وحده، لن يقدم لنا التصور الكامل للعمل الشعري، كما أن تناوله من زاويته الفنية وحدها لن يكون معيارا صحيحاً لتقييم هذا الشعر، ووضعه في مكانته اللائقة به. ففهم الشعر من حيث أنه لغة خاصة، هو الوسيلة لفهم موضوعه، أو الوصول إلى مستوياته الدلالية المختلفة، وليس العكس... فضرورة دراسته من جانب الشكل مكملة جانب المضمون فيه تكون حينئذ أكيدة. وبتناوله من هذين الجانبين متكاملين تتصف النظرة إليه بالدقة والشمول"⁸.

أما الناقد محمد مصايف فقد أشار في معرض حديثه عن أزمة النقد في الجزائر وتشخيص وظيفة النقد والناقد- في كتابه (دراسات في النقد والأدب) الذي يعود تأليفه إلى سنة (1975)- إلى أبعاد الإشكالية المنهجية؛ أو تحديدا التلميح إلى الافتقاد إلى المنهج المناسب كما نعتة. ولقد شخص هذا الناقد أزمة الفاعلية النقدية في الجزائر من خلال مظهرين اثنين؛ أزمة في فهم الوظيفة الأساسية للنقد، وأزمة أخرى شكلها افتقاد المنهج المناسب، وقد انجر عنها إشكالات عدة وسمت العملية النقدية بالجزئية، إذ " ليس من الصعب على المرء أبدا أن يتحسس عوامل هذه الأزمة وأن يحدد أبعادها وعمقها بموضوعية وصراحة...وأرى أن أهم العوامل الأساسية التي ينبغي أن لا نمل من ذكرها، والمناقشة حولها، هي على التوالي وحسب أهميتها: عدم الفهم الصحيح لوظيفة النقد، وانعدام المنهج المناسب لدى بعض الدارسين..."⁹، وهو إذ يؤكد على ضرورة حضور المنهج أثناء الممارسة النقدية، فإنه يشير إلى جمود الحركة النقدية في الجزائر كذلك، وانحسار الفضاء المنهجي عند القلة من النقاد؛ لهذا تراه لا يكتفي بتشخيص وضعية النقد في الجزائر، بل يحاول أن يقدم ملامح رؤيته المنهجية، وأسلوبه النقدي ضمن تصور منهجي متكامل يراعي مضامين النص وجوانبه الفنية معا، فلا يقتصر الناقد عنده على منهج واحد، حيث يقول " غير أن أزمة النقد الأدبي في بلادنا لن تتفرج إلا إذا توفر لها منهج نقدي متكامل، منهج يراعي الفن والاتجاه والنوع والمدرسة مراعاة كاملة. ولا يجب أن يكون لناقدا منهج واحد"¹⁰.

فالتصور المنهجي في قراءة النصوص الأدبية الذي يقصده الناقد محمد مصايف هو شيء من التركيب المنهجي مع الانحياز إلى السياق الاجتماعي وتبني الرؤية الواقعية التي تربط بين مضمون النصوص في علاقتها بالمؤلف والمجتمع، مع الأخذ في الحسبان الجوانب الفنية التي تشكل جماليات الأثر الأدبي من صياغة

لفظية وتشكيل أسلوبية، حيث يقول: " كنت أنظر إلى النص على أنه أثر أدبي يعبر عن قضايا اجتماعية أو سياسية أو قومية أو عاطفية، دون إغفال الجانب الفني في الأثر الأدبي"¹¹، ولعل هذا ما يفسر مرجعيته السوسيولوجية التي غلبت على دراساته المختلفة والتي لا يفصلها عن الحركة العامة للمجتمع ولا عن الأرضية الاجتماعية التي تكون في سياقها النص الأدبي بنوعيه. غير أن هذه الرؤى وإن كانت تحمل الهم المنهجي وتتوسل مناهج لها حضورها في ساحة النقد، وتكون قد أثبتت فاعليتها في تاريخ النقد الأدبي، إلا أنها سرعان ما طوحت بالنصوص الأدبية بعيدا لصالح المرجع الخارجي، كما دفعت بالممارسة النقدية لتسقط تحت تأثير التاريخية تارة والانطباعية أو الأيديولوجية تارة أخرى.

إن هذه الإشكالية لم تغب عن الكثيرين من النقاد الجزائريين في بحثهم عن المنهج الملائم الذي ينبغي أن يكون نابعا من قيم الأنا الحضارية، لا وفق إبدال منهجي مستعار أنتج متغير حضاري ساهمت فيه فلسفات ومرجعيات غربية غريبة، كما هو الحال عند الناقد عمر بوقرورة الذي خص المسألة المنهجية في الأدب والنقد في كتابة (فوضى الإبدال في النقد العربي المعاصر، بحث في الواقع والآفاق)، بسؤال المنهج في ظل التحولات المختلفة التي شهدتها الخطاب النقدي عموما، حيث ناقش المسألة المنهجية من أوجهها العديدة، مقترحا تصوره للبديل المنهجي الذي يجب أن تتشكل أركانه وفق البنية المعرفية للأنا الحضارية. وماهية المنهج ومحدداته عند هذا الناقد هو كونه وسيلة ودليل إجرائي يساعد على الاقتراب من النص وتدقيقه وفهمه، كما قد يعني النظر المعرفي والفكري في أدق تفاصيله.

غير أنه مع ذلك لا يخلو من طابع الانحياز بما حوى من مضمرات ذات الحضارية والخلفيات المرجعية التي شكلته، لهذا " فالمنهج ليس طرقا إجرائية بريئة"¹²، بل لا تخلو المناهج النقدية المستعارة عادة من حمولات معرفية وإيديولوجية تعد

تربة وماء مكونات ثقافتها الأصلية؛ فالمنهج التاريخي خلفيته المعرفية استشراقية أوروبية تفريقية، يغفل النظر إلى العناصر الروحية والفكرية والأدبية للأمة ولكنونة النصوص ذاتها¹³، والمنهج النفسي منهج أوروبي، وأن فرويد لم يؤسس ولم يؤصل إلا بالأوروبية وانطلاقاً من المصدر المعرفي الأوروبي¹⁴، والمنهج الاجتماعي عبارة عن " تنف من المعارف الملقنة وفق الاندهاش الذي تغيب فيه-عادة- القاعدة المنهجية المعتمدة على النقد والتحليل والمراجعة"¹⁵، والمنهج البنيوي أساسه الاختزال المنهجي وفوضى العقل والمعرفة واضطراب الروح، والتجريد المعرفي، وغياب الرسالي، وموت المؤلف¹⁶، وهكذا دواليك هي المناهج التي فرضها متغير حضاري ساهمت في إنتاجه مرجعيات فلسفية مغايرة للطبيعة الحضارية للذات والثقافة وطبيعة النصوص العربية ذاتها.

لهذا يرى هذا الناقد أنّ كل منهج، أو كل إبدال منهجي ينبغي أن تتشكل أركانه وفق البنية المعرفية الخاصة (للأنا) التي تتداخل مع العالم وفق منطق الندية والتجاوز، لا وفق منطق التبعية والاستلاب، أو منطق الانهيار الشكلي بالنموذج المستعار. وفي سبيل الخروج من هذا الوضع القلق على المنهج النقدي أن يتأسس ويتأصل بما يحمله من عمق معرفي خاضع حتماً لخصوصية الذات الحضارية - (العربية والإسلامية) - التي يمكن أن تنتج بخصائصها ومقوماتها المرجعية وتسمه بطابعها الخاص والمتفرد، وتبعا لإستراتيجية تقوم على وعي متوازن يراعي معطيات الثقافة العربية وخصوصياتها واختلافها وسياقات التطور" إن المنهج المرجو هنا منهج متوازن يقوم على الاعتبار المعرفي وعلى الوعي العلمي بعيداً عن الاختزال وعن الذرائعية، كما أنه منهج مأمول بالاعتماد على المعرفة التي نكتسبها عن طريق التطور الذاتي القائم على التراكم الكمي والنوعي، والمنهج بهذه الكيفية ضرورة فنية ومعرفية ومسؤولية وحضارية، والضرورة التي يقتضيها الراهن المعرفي والمنهجي

الذي لم يستطع به النقاد والدارسون في العالم العربي أن يتجاوزوا المتاح المحكوم بابستمولوجيا الآخر¹⁷.

أما الناقد إبراهيم رماني فقد أشار كذلك إلى المسألة المنهجية في كتابه (أوراق في النقد الأدبي) (1985) من خلال عملية التنظير للممارسة النقدية وللمنهج؛ ذلك لأنّ مسألة المنهج فيما يرى مسألة كونية بالدرجة الأولى ترتبط بالتصور الخاص للحياة، يشكلها النمط الحضاري للمجتمعات، فلا ترتبط بالعمل الأدبي والإبداعي فحسب، بل ترتبط برؤيا شاملة لعملية الإبداع في الكون والحياة، وبأن كل تفسير لإشكاليات النص يمر حتما عبر شبكة من الأنظمة الأولية التي كما تحدد موقفنا من العالم تأويلا، تحدد موقفنا من النص كذلك، وذلك هو المنهج في تقدير هذا الناقد، حيث يقول: "إن النقد في معالجته للنص الأدبي، ومحاولته لإيجاد تفسير لإشكاليات هذا النص، إنما يعتمد على الفهم الشامل العميق، هذا الفهم الذي ترى فيه-الهيرمنوطيقا- أو محاولة تأسيس نظرية التفسير في الأدب، إنه ينهض على أساس من أنظمة أولية شاملة لقدم وجودنا نفسه في العالم"¹⁸، وعليه فهو ينفي عالمية المنهج النقدي الصالح لكل النصوص، ويقر بخصوصية النشاط النقدي الملازم لطبيعة النص؛ فلكل بيئة حضارية منهجها المنسجم مع تصوراتها، يحمل في بنيته الداخلية مقولاته ومفاهيمه التي ترتبط بواقعه الحضاري المخصوص، فلا يمكن فصله عن أرضيته الفلسفية واستنتاجاته في أرضية فلسفية مغايرة، لهذا يقول: "فكيف نرفض خصوصية المنهج النقدي العربي، ونزعم أن المناهج النقدية واحدة"، وأنها عالمية تصلح لكل الآداب؟!¹⁹، فمنهج لا يراعي خصوصية وطبيعة النص نفسه لن يستطيع أن يكون فاعلا ومؤديا لوظيفته التحليلية، بل سيكون توظيفه تطبيقا قسريا على النص، قد يظلم النص ويغيب معناه أكثر ما يوضحه.

ضمن السياق نفسه، أي البحث عن المنهج وبدائل القراءة الفاعلة، يعد الناقد عبد الحميد بورايو كذلك من النقاد السباقين الداعين إلى تناول المسألة المنهجية في النقد، واقتراح مناهج قادرة على استغلال الطاقات اللغوية والدلالية في تحليل بنيات الأثر الأدبي، والفاكك بذلك من أسر المنهجيات التقليدية؛ حيث أشار في مطلع ثمانينيات القرن الماضي (1981) إلى قضية تحديث المنهج، وإغناؤه بما يستجد في ميدان النظرية النقدية الغربية تباعا للتحول النوعي الذي طال تحديث الشكل الفني وبنية الخطاب الأدبي. ففي دراسته التي حملت عنوان " نحو منهج لدراسة النص الأدبي"، التي ضمنها كتابه (منطق السرد)، حاول هذا الناقد من باب مغاير في مقارنة النص الأدبي أن يلفت النظر إلى طبيعة المادة المكونة لأدبية النصوص، وواقعها المتشكل لغويا، التي أهملتها الدراسات النقدية التقليدية، ذلك أن في اللغة تكمن أدبية الأدب، وعبر اللغة أيضا تظهر فرادة الخطاب الأدبي، لهذا فإن كل ممارسة نقدية خارج حدود هذه المادة، بل خارج حدود أدبية الأدب هي ممارسة تتسم بقصر النظر، لهذا يجب اعتماد منهج تتسجم آلياته الدراسية وعدته المعرفية مع طبيعة النص الأدبي : "إن الخاصية التي تجعل النص الأدبي يختلف عن النصوص الأخرى لأنه من طبيعة مختلفة، هي الجانب الذي يجب أن تهتم به الدراسة الأدبية، لا بد إذن أن نعيد النظر في تلك الدراسات التي تستمد مناهجها من وطرائق بحثها من علم النفس ومن التاريخ ومن علم الجمال إلخ...²⁰.

ولقد كان الناقد عبد الحميد بورايو وافيا لهذا التصور منسجما مع طبيعة مادة الأدب وخاصية الأدبية فيه، وليس أدل على ذلك من تنبيهه لتوليفة من المناهج ذات الطبيعة النسقية التي تصدر من مشكاة البناء اللغوي للنصوص، أي تتعامل مع النص الأدبي باعتباره مجموعة من الأنساق والرموز اللغوية؛ كالمناهج الشكلاني

والمورفولوجي والمنهج البنيوي الأنثروبولوجي والسيمياثيات السردية والبنيوية التكوينية... إلخ.

ولقد كان حقل الأدب الشعبي بدايةً، والنصوص السردية عامة هي مادة الاشتغال المعرفي بالمنهج، وحقل التجارب النقدية التي رصدت اشتغال آليات كل منهج تباعاً لدى هذا الناقد. وهو الاشتغال المنهجي الذي تبنته كوكبة من النقاد خرجت من العبادة النقدية نفسها، والتي استشعرت أزمة المنهج كذلك، وحاولت أن تسهم بمقاربات على أساس مشروط في التعاطي مع مناهج النقد الحدائي، كما هو الحال عند الناقد علي ملاحي، والذي وإن لم يقدم رؤية منهجية مخصصة، إلا أنه دعا تحت تأثير التحولات الجذرية التي تشهدها ساحة النقد في العالم، وتحولات المفهوم النقدي نفسه، ووصول هذا المدّ المنهجي إلى ساحل النقد العربي إلى بحث مكونات النص، واستقصاء معناه طبقاً لبنية النص وتآلف وحداته، لاسيما في ظل عقم وقصور المناهج القديمة، وميلاد مناهج نقدية نصية حدائية لها حدود منهجية واضحة المعالم تجاوزت المرجع وحولت السؤال النقدي من البحث في تاريخ المؤلف وسيرته وانتمائه الاجتماعي والإيديولوجي إلى النظر إلى النص بوصفه بنية جمالية، ومركب نصي يختزن قيم تركيبية وصوتية ودلالية هي المادة التي أنتجته والتي لا يصدر النقد إلا منها وإليها، "إننا نسعى إلى اكتشاف النصوص، عبر قراءات متعددة نعتمدها في عملية التحليل والوصف والمعاينة، جملة خطوات عملية هدفها إشعار النص بوجودها. تشكل هذه الخطوات في عمقها صبغة منهجية حتى لا نسميها بداية منهجا.."²¹.

وهو هنا إنما يدعو إلى تجديد أدوات قراءة النص فحسب، وإلى تحريره من إسار الرؤية المرجعية، ومن وصاية أسئلة النقد التقليدية التي بلغت حد التلقين والتوجيه، مادام النص الإبداعي بحيويته وثرائه قابل للتجدد والتحول، ومادام هناك

انفتاح للتجربة النقدية على أفق نقدي واسع مزدهم بالنظريات والمناهج التي استطاعت أن تمنح للنص النقدي حضوره الديناميكي الفعال من داخل النص بوصفه بنية لغوية ارتبطت بوظيفة دلالية لا من خارجه فمن " هذا المنظور كان لابد لهذا النص أن يتحرر من الأسئلة الغيبية والعينية الماثورة أبا عن جد..يتحرر من مضايقات النقد القياسي تحررا يتوافق مع طبيعته وخصوصياته ونمط أسلوبه، إن النص الأدبي الناجم عن جملة إجراءات أدبية محضة هو الذي يدفعنا إلى تمييزه بنائيا وأسلوبيا وسيميولوجيا، ولا يسمح لنا البتة بالخضوع لقاعدة ما قبلية..إنها إرادة النص التي تقودنا إلى التجانس مع النص بالشكل الذي يجعله جزيرتنا العجيبة"²².

إن النظرة الفاحصة لهذه النماذج تبين الهاجس المنهجي الذي شغل تفكير الناقد الأكاديمي الجزائري، وحجم الفضاء الإشكالي الذي تطرحه قضية المنهج في الميدان النقدي، بل حجم الأفق المنهجي الوافد بتياراته وآلياته وفلسفته ونتائجه عند التطبيق النصي، ومع ذلك فإن هذا الأفق المحدث في سبيل البحث عن المنهج، والمشرع على إمكانات النصوص بقي في الكثير من الأبحاث والدراسات؛ إما عند مستوى الاستعارة المنهجية من مدونة الآخر، أو عند مناقشة اضطرابات الأنساق المعرفية لأصول المناهج دون أن يصاحب ذلك وضع تصور فعلي لمنهج يستجيب للهوية والخصوصية النصية. لهذا عرفت - وبصورة خاصة- الحداثة النقدية وتطبيقاتها في الخطاب النقدي الجزائري انكماشاً وانحساراً، كما ازدادت المسافة الفاصلة الحاصلة بين المنجزات النقدية والمتلقين اتساعاً، مما أبان عن عجز تام عند التلقي واغتراباً نقدياً عند التطبيق، ولعل السبب في ذلك كما يرى الناقد حسين خمرى يعود إلى مسألة جوهرية لها علاقة بالممارسة النقدية نفسها؛ تتعلق بكون الحداثة المنهجية في النقد هي سيرورة معرفية لمنظومة فكرية وفلسفية وثقافية وحضارية أسست للمفهوم والمصطلح، لاسيما عندما يتعلق الأمر بنقل المفاهيم والمصطلحات

الذي يطبعها غالبا التسرع في النقل والترجمة، وهي " عدم تحديد المفاهيم والأدوات الإجرائية والتحكم فيها بدقة أثناء تطبيقها على النصوص الإبداعية عند الناقد أو القارئ فتضيع فرصة استقبال النص النقدي والتعاطي معه وهو يستند للمنهج، بل يصير النص غريبا مفصولا عن حركية الثقافة، وبالتالي فإنه يعجز عن القيام بوظيفته الأساسية التي هي إجلال الدلالات الغامضة والمستغلة إلى غموض في التطبيق وغربة لدى التلقي.

3- البديل المنهجي في الخطاب النقدي الجامعي الجزائري والبحث عن حل لأزمة المنهج بين تصورات اللامنهج والتركيب المنهجي:

إذن من هذا كله ويسبب ما أثبتته التجارب من انفتاح النصوص على أكثر من قراءة، وبأنه لا وجود لقراءة منتهية عند نصّ يفتح أصلا على تأويلات غير منتهية، هذا بالإضافة إلى هاجس البحث عن المنهج الملائم الذي يستجيب لتركيب بنيات النص الأدبي وتداخل مستوياته وتآلف وحداته وتفاعلها بعضها مع بعض، جاء المشروع النقدي والمنهجي للناقد عبد الملك مرتاض الذي يسعى فيه إلى اقتراح حل لأزمة المنهج في قراءة النصوص بصورة عملية، وأن يجعل لما يقول واقعا إجرائيا في الدرس النقدي الجامعي الجزائري، مستلهما تصوره من ازدواجية التمثل؛ من التراث النقدي العربي تارة، هذا التراث الحافل بالنظريات والإجراءات التطبيقية والتي تعددت فيها زوايا القراءة والنظر للنصوص، والنقد الغربي بما يمور به من مناهج حاصرت النص من أكثر من جهة مقترحا ما أسماه بمنهج اللامنهج في قراءة النصوص تارة، والدعوة إلى ممارسة التركيب المنهجي تارة أخرى.

ولفهم فكرة اللامنهج لدى الناقد عبد الملك مرتاض، والذي عادة ما يلتبس بفكرة (المنهج المتكامل)، وفهم كذلك مسوغات التركيب المنهجي الذي دأب على اعتماده إجرائيا في العديد من دراساته، -وهو تصور لا نجده إلا عند الناقد عبد

الملك مرتاض فيما نعلم بهذه الطريقة الواعية والمقصودة-، فهم الاستراتيجية التي يقوم عليها هذا التصور؛ فالمقصود باللا منهج عند مرتاض هو " الدخول المحايد إلى النص مجردا من الآليات المنهجية الصارمة (التي لابدّ أنها مستمدة من خصوصية نصية مغايرة)، لمواجهة النص مواجهة مرنة، تتظاهر بأدوات منهجية قابلة للتطويع بما يعمق عطائته، ويتركها أرضية بكرًا، قابلة لممارسات قرائية مفتوحة"²³ ، وما العطائية التي يقصدها الناقد عبد الملك مرتاض إلا تلك الحرية التي يمنحها النص الأدبي في التناول من خلال ما يقدمه للقارئ/ الناقد من إمكانيات مع كل قراءة، فالنص عنده عالم مغلق قابل للانشطار والتشطي، هو أشبه بالذرة كلما انقسمت إلى جزيئات صغيرة، فإنها قابلة مع ذلك للانقسام إلى أجزاء أصغر وأصغر إلى ما لانهاية، " ذلك بأن النص الأدبي جوهر قائم بذاته، ويجوز أن تكتب عنه دراسات مختلفة؛ إذا ما اختلفت الأذواق الشخصية للدارسين وتباينت ثقافتهم بين عمل وبساطة، وقدم وحداثة."²⁴ .

أما التركيب المنهجي وهو البديل الآخر الذي يقترحه مرتاض في سياق حلّ الإشكالية المنهجية، وفي سياق تكريس ثقافة الاختلاف بدل عن ثقافة المطابقة والتماثل. ولقد جاءت فكرة التركيب المنهجي في معرض حديثه عن اللامنهج، والذي يقصد به الجمع بين أكثر من منهج نقدي والربط بينهم لمقاربة النصوص من زوايا شتى. ويستدل عن مشروعية هذه الرؤية بما هو مكرس في المدونة النقدية الغربية وفي المنجزات التطبيقية لنقادها، كما هو مكرس أيضا في مدونة النقد العربي الحديث وبين ظهرائي بعض نقادها، فالتركيب المنهجي -كما يقول- ليس "أمرا مستهجنا في مسار المنهجية ، أو علم المنهجية. فقد كنا ألفينا بعض الدارسين الغربيين، ومنهم كلود ليفي سطورس، يزاوج بين الأنثروبولوجيا والبنوية .. كما كان

يزاوج لوسيان قولدمان (Loucien Goldmen 1913-1970) أيضا بين النزعتين البنوية والاجتماعية..²⁵.

إضافة إلى أن فكرة التركيب أصيلة في مذاهب النقد الأدبي؛ ذلك " أن كل مذهب نقدي هو أصلا، تركيب من جملة مذاهب"²⁶، فالسيمائية في جوهر طبيعتها تركيبية " انبثقت عن ميراث مركب من اللسانيات البنوية، ودراسة الفولكلور والميثولوجيا"²⁷، والنيوية التكوينية " هي محاولة لإنقاذ البنوية والاجتماعية جميعا بالافادة من أفضل ما فيهما"²⁸، كما أن التفكيكية " يجب أن تكون بنتا بارة للبنوية التي تكملها أكثر مما تقاطعها"²⁹، لهذا غالبا ما كان يزاوج ويركب بين أكثر من منهج لا لرغبة في المزاجية والتركيب، بل لضرورة اقتضتها طبيعة النصوص نفسها كواقع معطى، ونسق المرحلة " والحق أن هذه الأدوات الإجرائية الجديدة التي تطالعنا بها كل يوم العلوم الإنسانية لا ينبغي لها أن تستأثر بالتفرد، ولا أن تستبد بالتربع على عرش المنهجية الصارمة التي لا تبقى ولا تذر؛ فذلك تدبير مفلس إذا جنأه في تناول نص من النصوص؛ ولكن يجب أن تكون تلك الأدوات مطوّرة لرؤيتنا للنص، ومكملة للنقائص التي ظلت تعتور مساعي المحللين والمؤولين ابتغاء الاقتراب بتلك المساعي نحو الكمال، الذي يظل بعيد المنال، على كل حال"³⁰.

ولقد ألفينا بعضا من الباحثين من يرى بان التركيب المنهجي عند مرتاض مرده التلقي لجملة المناهج النقدية الغربية دفعة واحدة دون فواصل زمنية بين منهج وآخر³¹، هي التي أشاعت هذا الصنيع، ولو كان الأمر كذلك لكانت فكرة مرتاض تقوم على التلفيق والاضطراب والخلط بين المناهج كالكثير من التوظيفات المنهجية التي تبنت ذريعة التكامل بين المناهج، لكن مرتاضا بدعواه إلى التركيب بين المناهج، إنما يدعو بوعي الناقد الحاذق المدرك لطبيعة المناهج والفاهم لإمكاناتها

التطبيقية القادرة على قراءة احترافية غير منحازة، ولا واقعة تحت إيديولوجية مهما كانت، قراءة تمكن من سد الثغرات التي يخلفها كل منهج على حدا.

4- خاتمة:

لقد أصبح التركيب المنهجي والجمع بين توليفة من المناهج سمة الأبحاث الأكاديمية الجامعية إيماناً من أصحابها -ربما- بأن وحدوية المنهج تبقى قاصرة عن استكناه دواخل النصوص، واقتضاض أسرارها، واستجابة لمتطلبات الحداثة النقدية ولطبيعة النصوص نفسها التي الكثير منها يتسم بطابع المغايرة والممانعة، والذي يقتضي محاصرة النص في أكثر من جانب وبأكثر من منهج، وفي بعض الحالات القليلة الاستجابة لموضوعة التركيب المنهجي ليس إلا، كابتداع هجين منهجي لا يمت للأصل النقدي تحت ما يسمى بالمنهج الوصفي التحليلي والذي أصبح ديدن من لا منهج له. انطلاقاً من هذا يمكن أن نستخلص النتائج التالية:

* - أن الهاجس المنهجي وقضية التعامل مع النصوص، بل قضية تجديد أدوات التحليل والقراءة بما يتماشى والتحول النوعي في الكتابة الأدبية من المسائل المركزية، التي لم تغب عن التفكير النقدي الجزائري منذ البدايات الأولى.

* - لقد أبرزت الكثير من المشاريع النقدية في الخطاب النقدي الجامعي عن وعي بقضية المنهج وأبعادها لاسيما عند مستوى المقترحات والبدائل المنهجية التي قدمها الناقد الأكاديمي الجزائري كحل لإشكالية المنهج كما هو الحال عند الناقد عبد الملك مرتاض.

* - لقد وسعت مسألة البحث عن المنهج في الخطاب النقدي الجامعي الجزائري آفاق البحث النقدي في ضوء المستجدات النقدية والثقافية والفكرية العالمية، وأبانت عن استيعاب الناقد الجامعي لإجراءات المنهج وخطورته في الآن نفسه من أجل إعادة قراءة النصوص الأدبية العربية ضمن اشتراطاتها اللغوية والحضارية.

الهوامش:

- ¹ محمد صابر عبيد: تجلي الخطاب النقدي من النظرية إلى الممارسة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ومنشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ط 1، 2013. ص 116.
- ² ابن منظور: لسان العرب، مادة (نهج)، ج 2، ص 383. و أحمد ابن فارس، مقاييس اللغة، ج 5، ص 361. و جار الله الزمخشري: أساس البلاغة، ج 2، ص 311.
- ³ Dictionnaire encyclopédique AUZOU, p 1301 et dictionnaire Larousse sur : www.larousse.fr/dictionnaires/francais/ et Jean Nicot: Le Thresor de la langue francoyse (1606) sur <http://artflx.uchicago.edu/cgi-bin/dicos/pubdico1look.pl?strippedhw=méthode>.
- ⁴ أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، مج 2، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ط 2، ص 803-804.
- ⁵ المرجع نفسه، ص 111.
- ⁶ عبد الله الركبي: في الشعر العربي الجزائري الحديث، الدار القومية للطباعة والنشر، جمهورية مصر العربية، دط، دت، ص 11.
- ⁷ صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 6.
- ⁸ محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925-1975، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 2، 2006، ص 6.
- ⁹ محمد مصابف: دراسات في النقد والأدب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 10.
- ¹⁰ المرجع نفسه، ص 16.
- ¹¹ المرجع نفسه ، ص 16.
- ¹² عمر بوقرورة: فوضى الإبدال في النقد العربي المعاصر، بحث في الواقع والآفاق، كتاب مخطوط ، دت ، د ط، ص 169.
- ¹³ المصدر نفسه، ص 156.
- ¹⁴ المصدر نفسه، ص 158.
- ¹⁵ المصدر نفسه، ص 163.
- ¹⁶ المصدر نفسه، ص 164.
- ¹⁷ المصدر نفسه، ص 169-170.

- ¹⁸ إبراهيم رماني: أوراق في النقد الأدبي، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، ط 1، 1985. ص 91.
- ¹⁹ المصدر نفسه، ص 101.
- ²⁰ عبد الحميد بورايو: منطق السرد، دراسات في القصة الجزائرية الحديثة، منشورات ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص 10.
- ²¹ المرجع نفسه، ص 115.
- ²² علي ملاح: هذه التقاليد النقدية، مجلة التبيين، جمعية الجاحظية، الجزائر، ع 16، 2000، ص 114.
- ²³ يوسف وغيليس: الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، بحث في المنهج وإشكالياته، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2002، ص 88.
- ²⁴ عبد الملك مرتاض: حول دراسة النص الأدبي، مجلة الأقلام، ع 7-8، بغداد، العراق، تموز-آب 1982، ص 57.
- ²⁵ عبد الملك مرتاض: السبع المعلمات، تحليل انتربولوجي/سيمائي لشعرية نصوصها، دار البصائر، الجزائر، ط 1، 2012، ص 13.
- ²⁶ عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السرد، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 7.
- ²⁷ المصدر نفسه، ص 7-8.
- ²⁸ المصدر نفسه، ص 8.
- ²⁹ عبد الملك مرتاض: أ-ي، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين لبلاي لمحمد العيد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 1، 1992، ص 27.
- ³⁰ عبد الملك مرتاض: التحليل السيميائي للخطاب الشعري، تحليل بالإجراء المستوياتي لقصيدة شناشل ابنة الجلبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط 1، 2005، ص 6.
- ³¹ ينظر حمزة بسو: إشكالية المنهج في النقد الجزائري المعاصر، قراءة في مشاريع عبد الحميد بورايو، عبد المالك مرتاض، رشيد بن مالك، رسالة دكتوراه مخطوطة، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2، إشراف أحمد عزوي، 2019، ص 247.